الدين محاصر قلعة كوكب فذكر انه سمع بوصوله فاستدعاه اليه فظن انه يسال عن كيفية
قتل الامير شمس الدين بن المقدم فانه كان امير الحاج في تلك السنة من جهة صلاح الدين
وقتل على جبل عرفات الامر يطول شرحه وليس هذا موضع ذكره فلما دخل عليه ذكر انه قابله
بالاكرام التام وما زاد على السؤال عن الطريق ومن كان فيه من مشايخ العلم والعمل وساله
عن جزء من الحديث ليسمع عليه فاخرج له جزء فيه اذكار البخاري وانه قراه عليه بنفسه
فلما خرج من عنده تبعه عماد الدين الكاتب الاصفهاني وقال السلطان يقول لك اذا عدت من الزيارة
وعزمت على العود تعرفنا بذلك فلنا اليك مهم فاجابه بالسمع والطاعة فلما عاد عرفه وصوله
فاستدعاه وجمع في تلك المدة كتابا يشتمل على فضايل الجهاد وما اعد الله سبحانه وتعالى
للمجاهدين يحتوي على مقدار ثلثين كراسه فخرج اليه واجتمع به على بقيعة حصن الاكراد
وقدم له الكتاب الذي جمعه وقال انه على عزم الانقطاع في المشهد بظاهر الموصل اذا وصل
اليها ثم انه اتصل بخدمة صلاح الدين في مستهل جمادى الاول سنة اربع وثمانين وخمسماية
وولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف ولما كنت متولي الحكم بدمشق المحروسة جاني
في بعض شهور سنة ست وستين وستماية اسجال قد ثبت مضمونه عند القاضي ابي المحاسن
المذكور وهو يومئذ قاضي العسكر الصلاحي قبل انقطع ثبوته بموت فتعذر اثباته عندي
لذلك وتاملته الى اخره لاني استغربته فقد كان شيخنا واخذنا عنه كثيرا وحصل الانتفاع
بصحبته عندنا الى بقية ما ذكره ابو المحاسن المذكور فقال انه كان قد حضر الى خدمة صلاح
الدين في صحبته شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسمعيل والقاضي محيي الدين بن
السهروردي لما وصلا اليه في رسالة واتفق في تلك الدفعة وفاة البهاء الدمشقي المدرس
كان بمصر في مدرسته منازل العز وخطيب مصر وان صلاح الدين عرض عليه تدريس المدرسة
المذكورة فلم يفعل وانه حضر عند السلطان دفعة ثانية في رسالة من الموصل وهو على حران وكان
صلاح الدين مريضا يومئذ وذكر انه لما توفي صلاح الدين كان حاضرا وتوجه الى حلب لجمع
كلمة الاخوة اولا وصلاح الدين صاحب دمشق وتحليف بعضهم لبعض وان الملك الظاهر
غياث الدين صاحب دمشق يطلبه فاجابه الى ذلك فارسله الظاهر الى مصر لاستحلاف اخيه
الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين وعرض عليه الظاهر الحكم بحلب فلم يوافق
على ذلك فلما عاد من هذه الرسالة كان القاضي كمال الدين ابو القاسم عمر بن احمد المعروف
بابن العديم في تاريخه الصغير الذي سماه زبدة الحلب في تاريخ حلب رحمه الله وفي سنة اثنتي
وتسعين وخمسماية اتصل القاضي بهاء الدين ابو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بخدمة الملك
الظاهر وقدم اليه الى حلب وولاه قضاها ووقوفها وعزل عن قضاها زين الدين ابا البيان
نبا بن البانياسي نايب محيي الدين بن الزكي وحل بها الدين في رتبة الوزارة والمشاورة
انتهى كلامه قلت وهذا القاضي نبا هو ابن الفضل بن سليمان الحميري ويعرف [illegible]
بيت البانياسي وكان السلطان صلاح الدين يوكل القاضي محيي الدين ابا المعالي محمد
بن الزكي الدمشقي المقدم ذكره القضا بحلب فاستناب فيها زين الدين نبا بن البا
نياسي المذكور واستمر بها الى التاريخ المذكور وكانت حلب في ذلك الزمان قليلة

المدارس

المدارس وليس بها من العلماء الا نفر يسير فاعتنى ابو المحاسن المذكور بترتيب امورها
وجمع الفقهاء بها وعمرت في ايامه المدارس الكثيرة وكان الملك الظاهر قد قرر له اقطاعا
جيدا يحصل منه جملة مستكثرة ولم يكن له خرج كبير فانه لم يولد له ولا كان له اقارب فتوفر
له شي كثير فعمر مدرسة بالقرب من باب العراق قبالة مدرسة نور الدين محمود بن زنكي
رحمه الله تعالى للشافعية ورايت تاريخ عمارتها مكتوبا على سقف مسجدها وهو الموضع المعد
لالقاء الدروس وذلك في سنة احدى وستماية ثم عمر في جوارها دارا للحديث النبوي
وجعل بين المكانين تربة برسم دفنه فيها ولها بابان باب الى المدرسة وباب الى دار الحديث
وشباكان الى الجهتين وهما متقابلان بحيث ان الذي يقف في احد المكانين يرى من
يكون في المكان الاخر ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء من البلاد وحصل
بها الاشتغال والاستفادة وكثر الجمع بها فكان بين والدي رحمه الله تعالى وبين ابي
المحاسن المذكور مؤانسة كثيرة وصحبة صحيحة المودة من الاشتغال بالموصل فجئت اليه
وكان اخي قد سبقني بمدة قليلة وكتب سلطان بلدنا الملك المعظم مظفر الدين ابو
مسعود كوكبري بن علي بن بكتكين رحمه الله تعالى المقدم ذكره في حرف الكاف كتابا بليغا
في حقنا يقول فيه انت تعلم ما يلزم من امر هذين الولدين وانهما ولدا اخي وولدا اخيك
ولا حاجة مع هذا الى تاكيد وصية واطال القول في ذلك فتفضل القاضي ابو المحاسن و
تلقانا بالقبول والاكرام واحسن حسب الامكان وعمل ما يليق بمثله وانزلنا في مدرسته
ورتب لنا اعلا الوظايف والحقنا بالكبار مع الشبيبة في السن والابتداء في الاشتغال
وقد تقدم في ترجمة الشيخ موفق الدين ابن يعيش النحوي تاريخ دخولي الى حلب فاغنى
عن الاعادة ولم نزل عنده الى ان توفي في التاريخ الاتي ذكره ولم يكن بمدرسته في
ذلك الزمان درس عام لانه كان المدرس بنفسه وكان قد طعن في السن وضعف عن
الحركة وحفظ الدرس والقايه فرتب اربعة من الفقهاء الفضلاء برسم الاعادة
والجماعة يشتغلون عليهم انا واخي نقرا على الشيخ جمال الدين ابي بكر الماهاني لانه
من بلدنا وقد وصل والدنا في الاشتغال عند الشيخ عماد الدين ابي حامد بن يونس المقدم
ذكره فمات في ثالث شوال سنة سبع وعشرين وستماية وقد نيف على ثمانين سنة
فترددت الى الشيخ نجم الدين ابي عبد الله محمد بن ابي بكر بن علي المعروف بابن الخباز
الموصلي الفقيه الامام وهو اذ ذاك مدرس المدرسة السيفية فقرات عليه كتاب
الوجيز للغزالي الى الاقرار وعلى الجملة فقد خرجنا عما نحن بصدده بسبب اتصال الكلام
وكان القاضي ابو المحاسن المذكور قد ملك الامور وعقدها لم يكن لاحد معه في الدولة
كلام وكان سلطانها الملك العزيز ابا المظفر محمد بن الملك الظاهر بن السلطان
صلاح الدين وهو صغير السن تحت حجر الطواشي شهاب الدين ابي سعيد طغرل
وهو اتابكه ومتولي تدبيره وتدبير الدولة باشارة القاضي ابي المحاسن لا يخرج
عنها شي من الامور وكان للفقهاء في ايامه حرمة تامة ورعاية كثيرة خصوصا جماعة مدرسته
فانهم كانوا يحضرون مجالس السلطان ويفطرون في شهر رمضان على سماطه وكان الشمع

Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)